خطبة صلاة الجمعة 12/9/2014 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(أخطاء شائعة (25)– التقاعدُ، بمعنى القعود عن العمل)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 286].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذا أَخْطَأَ خطيئَة، نُكِتَتْ في قلبه نُكْتَةٌ، فإِذا هو نزَعَ واسْتَغْفَرَ وتابَ، صُقِلَ قلبُه، وإِنْ عادَ، زِيدَ فيها، حتى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وهو الرَّانُ الذي ذكره الله {كلا بل رانَ على قُلُوبِهِمْ ما كانوا يكْسِبُونَ}** [المطففين: 14]» [الترمذي].

هذه هي الخطبة الخامسة والعشرون في سلسلة: (**أخطاء شائعة**)

هدفُ السلسلة السعيُ لتصحيح ما استطعنا من هذه الأخطاء، فإن الله تعالى لا يهلك قرية أهلها متناصحون مصلحون ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117].

تتناول السلسلة خطأً في العلاقات الأسرية مرةً, وشعارها: (أسرتي سكني ومسؤوليتي)، وخطأً في معاملاتنا المالية مرة أخرى، وشعارها: (أسواقنا مرآة ديننا).

وخطبة اليوم من النوع الثاني، وعنوانها: (التقاعد، بمعنى القعود عن العمل)

- بلغ عدد الذين جاوزوا الستين عاماً في عام 1995 (380) مليوناً، وفي عام الألفين (590) مليوناً. وتذهب تخمينات الأمم المتحدة إلى أن عددهم في العالم سوف يتجاوز حد المليار ومئة مليون حتى عام 2025، أي إن نسبة ازدياد المسنين تتجاوز نسبة ازدياد السكان في العالم، ووفقاً لهذا التوقع فإن فرداً من كل سبعةٍ من سكان العالم سيكونُ من هذه الفئة العمرية في ذلك العام.

- التقاعدُ هو أحدُ الأنظمة الاجتماعية الحديثة، يخوّل العاملَ الذي بلغ سناً محددةً (الستين أو الخامسة والستين) نيلَ راتبٍ تقاعدي، وتشيرُ مصادرُ التوثيق أن مَن أوجدَ التقاعد بشكلِهِ ونظامِه الحديث بسمارك، واعتمدتْه ألمانيا يومها.

والجديرُ بالذكر أن التقاعدَ -بمعنى تقديم راتبٍ تقاعديٍّ وخدماتٍ اجتماعيةٍ لكبير السن تقديراً لعمله الطويل، ووفاءً لجهده الكبير- أمرٌ محمودٌ ومشكور، أما التقاعدُ بمعنى القعود عن العمل والخلود إلى اللهو والفراغ، فهو خطأٌ شائعٌ لا يرضاه الإسلامُ ولا العقلُ الصحيح.

كيف، والإسلام يعتبرُ العملَ قيمةً عاليةً ويدعو أتباعه ألَّا يتوقفوا عن العطاء مادام في المرء عِرْقٌ ينبِض؟

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 105] ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97] ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: 77] «إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا» [أحمد].

كتب أحد الأدباء يخاطب مَن تقدَّمتْ به السنُّ وتقاعد:

(لئن ضعُفَ بدنُك فلقد قوي عقلُك، ولئن رقَّ عظمُك فلقد زاد فهمُك، ولئن لاح الشيبُ في رأسك فلقد ظهرتِ الحكمةُ في رأيك، فلا تظنن التقاعدَ دعوةً إلى القعود وركونٍ إلى الخلود، بل هو توقُّفٌ عن العمل الرسمي فقط، والإنسانُ مكلَّفٌ ما بقيتْ فيه عينٌ تطرُف وعقلٌ يميز).

إنَّ الفهمَ الصحيح – أيها الإخوة- لتعاليم الإسلام، والتربية العالية للمسلم أنتجت المئاتِ والألوفَ من كبار السنِّ الذين دانَ لهم العالمُ الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه بالفضل والامتنان.

- فالحافظُ الإمام أبو القاسم البَغَويُّ: حافظٌ للحديث، كان محدِّثَ العراق في عصره، طالَ عمرُهُ واحتاج الناس اليه. ماتَ وقد استكملَ مائةً وثلاث سنين وشهراً واحداً. كان طلابُ العلم يسمَعون عليه حتى مات -رحمه الله-.

-والصحابيُّ الجليلُ أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه لم يتخلف عن غزاةٍ للمسلمين إلا وهو في أخرى، ولزمَ الجهاد بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن توُفِّيَ في غزوةٍ بالقسطنطينية، سنة 52هـ وسنه يقارب الثمانين.

مرِض أبو أيوبَ في آخر غزوة غزاها، فأتاه قائدُ الجيش يعودُه، فقال: ما حاجتُك؟! قال: حاجتي إذا أنا مِتُّ فاركب بي، ما وجدتَ مساغاً في أرض العدو، فإذا لم تجد فادفني، ثم ارجع. ففعل.

دُفِنَ أبو أيوب عند القسطنطينية، وعلى قبره مزارٌ ومسجد.

- والحافظُ العلامةُ عمادُ الدين أبو طاهر أحمد بن محمد السِّلفي، المعمَّر، أحفظ الحفاظ وشيخُ العلم والحديث مائةَ سنة. وُصِف بالمحدث الجهبذ المقرئ الأديب المؤرخ اللغوي الناقد الضابط المتقن. كان ينشد فيقول:

أنا مِن أهلِ الحديثِ وهم خيرُ فئة جُزْتُ تسعين وأرجو أن أجوزَ المائة

فحقَّق الله رجاءَه، فمات عن مائة وأربع سنين. ولم يزل يُقرأ عليه الحديث حتى آخرِ يوم من حياته.

- والتابعي الجليل موسى بن نصير -رحمه الله- فتح الأندلس وقسماً من جنوب فرنسا هو ومولاه (طارق بن زياد).

ويذكر التاريخ له قولتَه وهو شيخٌ كبيرٌ: (ما هُزِمَتْ لي رايةٌ قط، ولا فُضَّ لي جمْعٌ، ولا نُكِب المسلمون معي نكبةً منذ اقتَحمْتُ الأربعين، إلى أن شارفتُ الثمانين).

ويذكر أن موسى بن نصير كان أعرج مسناً، توفي سنة 99هـ، في المدينة النبوية وقد قارب الثمانين. [تاريخ الإسلام للذهبي: 2/279]

- والتابعي عطاءُ بن أبي رباح: مفتي الحرم المكي، عاش تسعين سنة، كان رحمه الله بعد ما كبر وضعف يقوم إلى الصلاة فيقرأ مائتي آية، من سورة البقرة وهو قائم، لا يزول منه شيء ولا يتحرك.

-وهكذا برز المئاتُ والمئات من كبار السن في عالم المسلمين، الأمرُ الذي حدا أبا حاتم السجستاني (ت: 248 هـ) أن يصنّف كتاباً في تراجم المعمَّرين من العلماء والفضلاء والدعاة، سماه (المعمرون والوصايا).

وهكذا يفجرُ الإسلامُ في كبار السن طاقاتهم، ويجعلهم قوةً فاعلةً تفيد المجتمع وتنفعه مثلما تنتفع هي به.

أيها الإخوة:

أثبتَتِ الدراساتُ الطبية والاجتماعية أنَّ المتقاعدين الذين يعملون بعد التقاعد أكثرُ توافقاً ورضاً عن الحياة من المتقاعدين الذين لا يعملون، وأقلُ شعوراً بالاكتئاب النفسي.

وأحبُّ أن أنقل إليكم بعضَ التجارب العالمية الناجحة في الاستفادة من خبراتِ كبار السن والمتقاعدين.

-أعلى نسبة في العالم لطول العمر موجودة في اليابان:

(النساء 85سنة والرجال 78 سنة) ونسبةُ المسنين الذين تعدَّوا الخامسة والستين في اليابان اليوم وصلتْ إلى 5.8% من السكان ولكن اليابان قررتْ أن تُدرج المسنين في ثروتها القومية؛ لما يملكون من خبراتٍ وكفاءات، فأعادتْ تعيينَهم كمستشارين في مؤسساتِ الحكومة والمجتمعِ المدني والجمعياتِ الأهلية مع تغييرٍ طفيفٍ بمواعيد دوامهم يتماشى مع المرحلة العمرية.

-في ألمانيا أُنشِئَتْ هيئةٌ اسمها (هيئة الخبراء المسنين) مقرُّها مدينةُ بون، تضم أكثر من خمسة آلاف خبير ألماني من المتقاعدين، وقد زار عددٌ من هؤلاء الخبراء معظمَ البلدان الناميةِ لتقديم خبراتهم واستشاراتهم لها في جميع القطاعات، ويعمل الخبراء مجاناً في هذه الهيئة.

-جامعة المتقاعدين أنشئت عام 1969 في مدينة كاكوجاد باليابان، وأول شروط الانتساب أن يكون الشخصُ قد تجاوز سنَّ الستين عاماً، ومدةُ الدراسة فيها أربع سنوات، يتضمن منهاجها الثقافةَ العامةَ، وعلمَ النفس، واتجاهات الاقتصاد الياباني، ويتضمن البرنامج العملي فلاحةَ البساتين وصناعةَ الأواني الفخارية والكثير من الحرف اليدوية، كما يتضمن المنهاجُ زيارةَ كافة المواقع والمعالم الأثرية في اليابان.

– تنظيم الأرشيف الوطني: وهو برنامجٌ تنظِّمُه جمعيةُ المتقاعدين الأمريكية لما للمسنين من درايةٍ وخبرةٍ تفوقُ سواهم في هذا العمل، فشُكِّلَتْ فرقٌ لتوثيق تاريخ الولايات الأمريكية في مختلف جوانب الحياة اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً وسياسياً وقد انطلق تنفيذ هذه الحملة منذ عام 1970.

هذه أمثلة من العمل الجماعي للمسنين، أما عن العمل الفردي فيمكن للمتقاعد أن يلتحقَ ببعض الأعمال التطوعية في واحدة من الجمعيات أو المؤسسات أو المساجد المتفقة مع اختصاصه، كما يمكن له أن يفزعَ إلى التأليف والتصنيف إن كان من أهل هذا الشأن، وبإمكانه أن يُعين الشباب الجُدُدَ بخبراته التجارية أو الصناعية أو التربوية أو الحياتية؛ ليبقيها فيهم صدقةً جاريةً وعلماً ينتفع به.

ولا ينسَ مُسِنٌّ فينا أن يأخذ حظَّهُ من القرآن وأوراد الذكر، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ومن قيام الليل، وصيام النهار، والدعاء.

يا أيها الكبار.. يا أيها المسنون.. يا أيها المتقاعدون:

اعلموا أنكم بركتنا ففي الحديث: «**البركة مع أكابركم**» [ابن حبان والطبراني والحاكم]، واعلموا أنكم خيارنا ما حسنت الأعمال، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**خياركم أطولكم أعمارًا وأحسنكم عملا**» [أخرجه الحاكم وصححه]، واعلموا أنكم المُقَدَّمُون فينا، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أمرني جبريل أن أقدم الأكابر**» [الشافعي في الفوائد].

وأنتم يا أيها الشباب:

اذكروا قول رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «**مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ**» [الترمذي]، فإذا كان الكبير أباً أو أمَّاً فهو بابُكم إلى الجنة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الوالِدُ أوسَطُ أبواب الجنة، فإن شِئتَ فأضِع ذلك البابَ أو احْفَظْهُ**». [أخرجه الترمذي].

وحسبكم في الدعوة إلى إكرام كبار السن بيننا قول رَسُولِنا الكريم صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ تعالى إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ**» [أبو داود]

أيها الإخوة:

التقاعدُ بمعنى القعود عن العمل خطأٌ، والصوابُ أن يعمل أحدُنا الخير مادام قادراً عليه.

نسأل الله تعالى أن يعينَنا على تصحيحِ أقوالنا وأفعالنا حتى يُعجِّلَ لنا بالفرج.

والحمد لله رب العالمين